المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

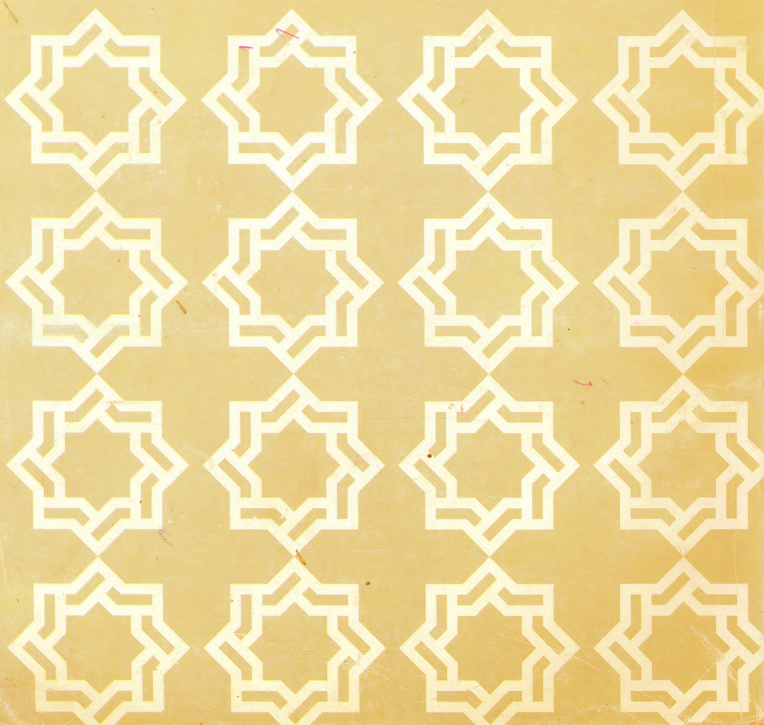

الحالة الاقتصادية في عهد الخلافة العباسية

بقلم المستشرق السوفيتي

ي. أ. بيليايف

ترجمة الدكتور

جليل كمال الدين

قسم اللغات الاوربية ـ كلية الآداب
جامعة بغداد

الزراعة :

لقد جرى في القرن الاول من العهد العباسي (في النصف الثاني من القرن الثامن والنصف الاول من القرن التاسع) تطور هام للانتاج ، والتبادل التجاري ، والثقافة . وبتثبيتنا هذه الحقيقة الهامة ، ينبغي ان ناخذ بحسباننا ان هذا التطور (خصوصا في حقل الثقافة) كان نسبيا . وكان مستوى الانتاج ، دون شك ، اكثر ارتفاعا ، كما كان التبادل التجاري اكثر حيوية مما كان عليه الحال ايام الامويين ، لكنه كان واطئا لحد كبير ، بالمقارنة مع ذلك المستوى ، الذي بلغته اقطار الشرقين الادنى والاوسط في القرنين العاشر والحادي عشر . ويقرر ف. ف. بارتولد(**) ان « الخلافة قبل تدهورها كانت دولة بالغة البدائية والغفلة بحيث ان العمل الثقافي الذي بسببه اشتهرت بغداد واصفهان والمدن الاساسية الاخرى للعالم الاسلامي في عهد العباسيين الاوائل ، بالكاد ابتدأ ... »(١)

لقد كان الفرع الاساس في الانتاج هو الزراعة ، المؤسسة على الري الاصطناعي . وكان اعلى مستوى بلغته الزراعة بالري في ارض العراق ، وخصوصا في قسمه الجنوبي ـ السواد . فقد كانت الحقول هنا تجود بمحاصيل غنية في الاراضي المزروعة بالحبوب ، كما بلغت حدا كبيرا في التطور البستنة وزراعة اشجار النخيل ، التي اعطت ثمارا حلوة للغاية مليئة بالعصير الريان . وقد ازدهرت في العراق والمناطق المجاورة له من ايران زراعة القطن وقصب السكر . وفي الاماكن المنخفضة التي ركد الماء فيها امدا طويلا بعد فيضان النهرين الكبيرين في ارض ما بين النهرين تطورت زراعة الرز . والى جانب العراق وجنوب غربي ايران كان هناك قطر اخر تطورت فيه الزراعة بالري هو مصر (وخصوصا الدلتا الخصبة) . فهنا ، الى جانب الحبوب، كان الكتان ايضا يزرع بكميات كبيرة . وبالمقارنة مع هذه الاقطار التي تشغل مكانا قياديا في اقتصاد الخلافة العباسية ، كانت سوريا التي فقدت وضعها الامتيازي السابق ، تحتل المقام الثاني ، وان كان هذا المقام لايزال يتمتع باهمية ليست بالزهيدة .

وفي اكثرية اقطار الشرق (بما في ذلك اقطار الخلافة ايضا) كانت الزراعة ممكنة فقط في ظروف الري الاصطناعي للتربة . وقد عبر العرب عن ذلك في المثل الذي يقول : حيث ينتهي الماء تنتهي الارض أيضا . أن هذا يعني ان الارض غير المروية بانتظام بالماء ليس لها اية قيمة اقتصادية بالنسبة الى الزراع ، وتظل عقيمة رغم العمل المنفق في فلاحتها . ان الاعتماد على هطول « ماء السماء » ، أي المطر ، امر لم يستطعه الزراعون . وفي بعض الاقطار الشرقية كانت الامطار القصيرة الامد تسقط نادرا (واحيانا كان الجفاف يتطاول بضع سنوات) ، وفي اقطار اخرى كان المطر يهطل شآبيب عنيفة تجترف الطبقة الخصبة من الارض اكثر مما ترويها . ولذلك ، فمنذ الازمان القديمة للنظام العبودي ، اقيمت في اقطار الشرقين الادنى والاوسط منظومة متكاملة متطورة للري الاصطناعي ، كانت تحت سيطرة السلطة المركزية للدولة . وقد حوفظ على هذه المنظومة،

(*) البروفسور يفغيني الكساندروفيج بيليايف (١٨٩٥ ـ ١٩٦٤) مستشرق ومؤرخ سوفييتي بارز ، شارك في عدد من المؤتمرات الدولية للمستشرقين . وهو دكتور في العلوم التاريخية ، وعضو شرف في المجمع العلمي في الجمهورية العربية المتحدة . وقد تلقى تحصيله العالي الاستشراقي في الكلية الشرقية لجامعة بطرسبورغ (لننغراد حاليا) وفي معهد الاستشراق بموسكو . ومنذ عام ١٩٢٢ حتى وفاته كان يعمل في تدريس التاريخ ، وفي البحث العلمي في معاهد الدراسة العليا ومؤسسات البحث العلمي في موسكو . وقد اشتهر كاختصاصي كبير في الاسلاميات وفي تاريخ العرب في القرون الوسيطة . وقد نشر اكثر من مائة عمل علمي معتبر . (المترجم)

(**) بارتولد ـ مستشرق روسي مشهور ، نشرت معظم اعماله في عهد ما قبل ثورة اوكتوبر . (المترجم)

(1) V. Bartold, Khalif & Sultan, pp. 214—215.

على نحو اساسي ، في عهد خلافة بغداد ايضا . وبالطبع ، فان هذه المنظومة قد تعرضت ، في مدى الاف السنين للانتاج الزراعي ، كثيرا من المرات للتخريب والتدمير ، وذلك نتيجة لغزوات البدو الرحل ، وللحروب المهلكة التي ادت الى سقوط الدول والسلالات المالكة . ولكن الطاقة التي لا تعرف الكلل للجماهير الكادحة كانت ، على الدوام ، تعمر ما خرب من منشآت الري ، الذي كانت الزراعة مستحيلة من دونه .

وعند مجيء العباسيين الى السلطة ، كانت منظومة الري في العراق في تدهور بالغ . ويفسر هذا الامر بالاحداث الاجتماعية ـ السياسية الخطيرة ، والانتفاضات والحروب المتواصلة في عهد الامويين . وقد تعين على العباسيين ، ابتداء من حكم الخليفة المنصور ، ان يوجهوا اهتمامهم الى الانتاج ليس بسبب الاعتبارات المالية فحسب بل والاعتبارات الاجتماعية ايضا . ان تطور الانتاج قد رفع مستوى السكان (وبالدرجة الاولى الفلاحين) ، واخرجهم من حالة العوزالمزمن والسخط ، التي كانوا عليها ايام الامويين . وقد وجهت السلطات العباسية جهود الزراعين ، الى تعمير وتحسين منظومة الري الاصطناعي قبل كل شيء . وكان هذا الامر ممكن التحقيق نسبيا ، وذلك لان اكثرية الاماكن المزروعة كانت ارضا اميرية ، وكان الزارعون فيها يخضعون مباشرة للادارة الحكومية . وقد وجدت اعمال التعمير لمنظومة الري تعبيرها في تنظيف الاقنية المهجورة ، والمطمورة بالرمل والطين ، وفي شق اقنية جديدة ايضا . ان توسيع اقنية الري قد ترك تاثيرا فوريا تجلى في زيادة الاماكن المزروعة وفي رفع ريعية الارض .

لقد كرس الحكام العباسيون جل اهتمامهم الى الانتاج في العراق ، الذي كانت ترد منه اكثر من ٣٠٪ من واردات خزينة الدولة . وبهذا الخصوص تجدر الاشارة الى اراء مؤسسي الماركسية حول الادارات والموارد الثلاثة التي كانت تمتلكها حكومة الشرق . فقد كتب فريدريك انكلز الى ماركس يقول : « لقد كان للحكومات في الشرق ، دائما ، ثلاث ادارات : المالية (نهب بلدانها) ، والحروب (نهب بلدانها والبلدان الاخرى)، والاعمال الاجتماعية (العناية بالانتاج) »(٢) .

وفي ايام الامويين كان نشاط الادارة الثالثة غير مستمر ، وضعيفا . اما في عهد العباسيين فقد صارت هذه الادارة تعمل بذات النشاط الذي تعمل به الادارة الاولى . وبالطبع ، فان النتائج الايجابية ، المستحصلة من الانتاج ، غالبا ما كانت تتقلص ، واحيانا يجهز عليها تماما نشاط الادارة المالية ، التي كانت تقوم بنهب نظامي للسكان الكادحين .

لقد كانت الزراعة في العراق تعاني ليس فقط من نقص الماء المجهز للحقل ، وانما كانت تعاني كذلك من العمل التدميري للانهار الكبيرة (وخصوصا لنهر دجلة العاصف والسريع الجريان) في موسم الفيضان السنوي . ومن اجل درء الكوارث الطبيعية، التي كانت السيول عند حلولها تجترف طبقات التربة المزروعة ، وتحمل الموت للناس والماشية والدواجن ، وتدمر المساكن ، من اجل درء ذلك كان ضروريا تقوية الضفاف ، واقامة السدود والحواجز في الحقول . وقد بذل سكان القرى على الضفاف الكثير من جهودهم في هذا السبيل . وليس الا في القسم الجنوبي من السواد ، في منطقة شط العرب ، كان النهران الكبيران ،المتحدان هنا في مجرى واحد ، يقدمان العون للزارعين المحليين . ففي وقت المد ، كان ماء البحر من خليج البصرة يصب يوميا في مجرى شط العرب ، مكونا عائقا لتياره . وانذاك كان ماء النهر العذب ، الذي يرتفع مستواه بغمر الحدائق ، ومزارع العنب ، والبساتين وغياض النخيل ، في الضفتين . ان مثل هذا الفيضان اليومي لم يكن يسقي الاماكن المغمورة بمائه فقط ، بل وكان يسمدها ايضا ، بتخليفه ، بعد الجزر ، طبقة رقيقة من الغرين المخصب .

لقد كان تكنيك الزراعة والري في مستوى واطيء ، وفي حالة من الرتابة المميزة لاسلوب الانتاج في العهود الاقطاعية الاولى . وكانت النواعير تعتبر اكثر الادوات التكنيكية تقدما في الري الاصطناعي . وكانت الانية الجلدية او الفخارية تشد بالطوق ، ولدى حركة العجلة كانت هذه الانية تضخ الماء من النهر او القنال الكبير ، ليجري في ميزاب ينسكب منه الى ارض الحقل مباشرة . ان هذه العجلة القادرة على الدوران على محور كانت اعتياديا تستند الى وتدين ، وكان يحركها احيانا زوج من الجواميس او زوج من الابل . ان مثل هذه الالة ، المصنوعة منذ قديم الازمان ، والمستخدمة في العراق وسوريا ، كانت تعتبر احدى « معجزات » تكنيك اياطالك . وكانت ثمة الة اخرى ، اكثر تداولا بين الزارعين ، وهكذا فقد اعتبرت المنجز التكنيكي الاكثر شيوعا ، وهي الشادوف ، الذي كانت ذراعه تدور على وتد خشبي ، والذي كانوا بواسطته يستقون الماء يدويا ويسكبونه الى الحقل. وفي مصر كانت الشواديف تستخدم منذ ازمان الفراعنة ، سوية مع البادم المائي ، المستخدم في العصر الهليني .

وكانت الادوات الزراعية اكثر بدائية . ففي قيد الاستعمال في كل مكان ، كان هناك القدوم ، والرفش ، والمذاري ، والمناجل ، وكانت كل هذه الادوات على ذات الحال الذي وجدت به طيلة الاف عديدة من السنين ، وعلى الاقل منذ ازمان السومريين ، وبناة اهرام الفراعنة . كما ان المحراث ايضا احتفظ بتصميمه البالغ القدم ، وبالاحرى كان هذا هو محراث من دون مقطع ولوح . ووفقا لشروط التربة والمناخ ، فعند الحراثة لم يكن مطلوبا الحرث العميق لطبقات الارض ، بل كان يكفي عزقها فقط .

ولم يخطر في بال احد تطوير الالات الزراعية ، من اجل تسهيل عمل الزارع ، والتقليل من عنائه . ويمكن تفسير التخلف التام في التكنيك الزراعي ، لحد كبير ، بالاستخدام الواسع لعمل العبيد في الزراعة والري الاصطناعي في عهد الامويين . اما في العهد العباسي ، فان الاهمية الانتاجية للعبد باتت تتدهور . انما استمر استغلال العبيد في أصعب أشكال الانتاج : في استصلاح الاراضي البور وريها ، وتجفيف المستنقعات ، وتنظيف المالح ، وكذلك في استخراج الملح والمعادن . وينبغي الاقرار بان اهم سبب للركود في التكنيك الزراعي كان هو الاهتمام الادنى للزراعين في تطوير الانتاج . فان كل الانتاج الفائض بل وقسما من القوت الضروري ، كان غالبا ما يؤخذ من الفلاحين في شكل ضريبة ريع(*) .

لقد اعتبرت اكثرية الارض عائدة الى الدولة . وعند

(2) Angles — to Marx, 6 June 1853, — K. Marx & F. Angles, Comp. Works, 2 ed., Vol. 28. p. 221.

(*) المقصود بذلك ، ما اسمي في وقته بـ « الخراج » ووفقا لكتاب أبي يوسف الشهير « الخراج » فأن الخراج هو مقدار معين من المال او الحاصلات يجنى من الارض التي صولح عليها .... (المترجم) .

الفرض ملكية الدولة على الارض ، فان الريع كان يجبى بشكل ضريبة على الارض ، وفي واقع الحال كان هذا هو ضريبة الريع التي كانت تستحصل من الزراعين على ايدي موظفي ديوان الضرائب المالي في الدولة (ديوان الخراج ـ المترجم) . وكان تحصيل الضرائب غالبا ما يقترن بصنوف من سوء الاستعمال ، يقترفها هؤلاء الجباة ، الذين كثر بينهم المرتشون والمبتزون ، الذين كانوا يستغلون لاغراضهم الخاصة جهل الفلاح ، وخنوعه بسبب الضغط ، وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه . وكان نظام تعداد التواريخ يجري وفقا للتقويم الهجري القمري ، اما ضريبة الارض فكان العرف ان تستحصل وفقا للتقويم الشمسي ، الذي كان يتفق مع اوقات العام . وباستغلال عدم اتفاق التقويم الرسمي مع التقويم الشمسي الفلكي ، كان المحصلون يمكرون احيانا ، فيجبون الضريبة مرتين في العام .

لقد شددت الحكومة العباسية الضغط الضرائبي على الكادحين طالما كانت معارضة الكادحين غير مرهبة لهم . وفي ايام المنصور ، كانت ضريبة الريع التي تجبى من سكان الاراضي المفروض عليها الخراج (وكانت هذه في الجوهر اراضي الدولة) ، كانت تستحصل اما من الاراضي المزروعة تبعا للكيل ، عينا ونقدا ، او في شكل اجزاء من الحاصل ، عينا . وفضلا عن ذلك ، بقيت كذلك تلك الاراضي التي كانت ضريبتها تجنى طبقا للاتفاقيات التي استنت ايام الغزوات . والى جانب الاراضي الخراجية ، كانت توجد اراضي « ملك » ، وكانت تعتبر ملكية وراثية للزارعين . ومن هذا الصنف من الاراضي كانت تؤخذ ضريبة « العشر »(*) . واخيرا ، كانت هناك اراض متحررة من الضرائب . وكانت هذه هي اراضي الخليفة واعضاء الاسرة الحاكمة ، وبعض الاعيان والوجهاء ، وكذلك اراضي الوقف ، اعني بذلك الموقوفة (بما في ذلك الارض) التي تعود ملكيتها الى المساجد والمؤسسات الدينية الاسلامية ، وكانت ايرادات اراضي الوقف تحت تصرف رجال الدين .

ان السعي لزيادة ايرادات الضرائب من الاراضي الخراجية ، قد وجد تعبيره ، في عهد خلفاء المنصور ، في استبدال الضريبة التي كانت تؤخذ عينا بشكل اجزاء من الحاصل ، بضريبة نقدية ، تبعا لمساحات الاراضي المزروعة . ان مثل هذا التغيير ، المشدد اجراؤه خصوصا في عهد هارون الرشيد ، قد ضاعف من تردي احوال السكان المفروضة عليهم الضرائب ، فيما ضمن للخزينة ، وللطبقة السائدة مبالغ محددة من الايرادات الضرائبية . وعندما كانت الضريبة تستحصل في شكل اجزاء من الحاصل ، فان الامحال والجدب وقلة المحصول ، التي كانت تضع الفلاحين في وضع تراجيدي ، كانت تقلل من ايرادات الخزينة ودخول الفلاحين معا . اما بادخال نظام الضرائب المستحصلة وفقا لمساحات الاراضي المزروعة ، فان التبعات الثقيلة المترتبة على هلاك المزروعات (بسبب الفيضانات المدمرة او غارات الجراد مثلا) ، كان يتحملها الفلاحون فقط ، الذين كانوا ملزمين بان يؤدوا المبلغ المقرر للضريبة ، بصرف النظر عن مقدار الحاصل المجتنى . وزيادة عن ذلك كله ، فان استحصال الضرائب نقدا قد جعل الزارعين معتمدين على السوق وخاضعين له .

وبما ان الدولة كانت تملك ليس الارض فقط ، بل والماء ايضا ، فان تحديد الضرائب ووضعها كان يعتمد ، كذلك ، على مصدر ارواء الحقول . وكانت اكبر الضرائب هي التي يدفعها الفلاحون الذين يسقون حقولهم مباشرة من شبكة قنوات الري التابعة للدولة . اما اذا كان الفلاحون يشقون قناة يتدفق فيها الماء الى حقولهم من شبكة قنوات الري ، فان الضرائب في هذه الحالة كانت تتضاعل (حتى ربع الحاصل) .

وقد اشار ابو يوسف على الخليفة بان ضرائب الريع (الخراج) ، ينبغي ان تستحصل من كل بد . فلم يكن يروق للحاكم ان يدع ولا مسلما واحدا دون ان تجبى منه الضريبة : « انه لن يقدم تساهلا ولا لاي واحد منهم ، سامحا له بشطر مما يستحق » . ولا يسمح ، كذلك ، لجباة الخراج ، ان يمضوا في اتفاق مع ممثلي الطوائف غير المسلمة (اهل الكتاب) ، فيكتفوا بمقدار الخراج المقترح ، دون تفقد عدد السكان المشمولين بالخراج . وحسب الظاهر ، كانت غالبا ما تقع حوادث ، يتسلم فيها جابي الخراج الرشوة من كبير القرية ، فيقلص مقدار الخراج ، مسببا ، بذلك ، الضرر للخزينة . ومعلوم ايضا من المصادر الاخرى ، ان الرشوة كانت افضل واعم وسيلة للتخلص من دفع الخراج .

وقد عارض ابو يوسف ، بقوة ، استحصال الضرائب من المعدمين ، والمرضى والشيوخ ، وتعذيب المدينين عن بقايا الضرائب (يمكن الاستنتاج بان مثل هذه الظواهر غير المشروعة كانت شائعة في كل مكان) .

وقد اعتبر هذا الفقيه القاضي البغدادي امرا غير مسموح به تعريض الذميين للضرب المبرح من اجل استحصال الجزية منهم ، او اجلاسهم تحت هجير الشمس ، او تعذيبهم بوسائل اخرى . وهو يرى انه ينبغي ان « يرفق بهم ، ويحبسون(ن) حتى يؤدوا ما عليهم »(*) . بل هو ينصح الخليفة بان يصدر امرا بوجوب تفقد احوال الذميين « حتى لا يظلموا ، ولا يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من اموالهم بحق يجب عليهم ... »(1) .

ان مثل هذه النصائح المترفقه بالانسان ، التي يقدمها للحاكم المطلق ، الاقطاعي واحد من الايديولوجيين البارزين للطبقة السائدة (**) ، انما كان لها هدف اساسي يقضي بدرء الثورات الشعبية ، التي زعزعت اركان الخلافة العباسية .

(*) يقول الماوردي في كتابه « الاحكام السلطانية » (ص١٣١) : «والارضون كلها تنقسم اربعة اقسام : احدها ـ ما استأنف المسلمون احياءه ، فهي ارض عشر لا يجوز ان يوضع عليها خراج . والقسم الثاني ما اسلم عليه اربابه فهم احق به ، فتكون على مذهب الشافعي ارض عشر ، ولا يجوز ان يوضع عليها خراج . والقسم الثالث ـ ما ملك من المشركين عنوة وقهرا ، فيكون على مذهب الشافعي رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين ، فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها ، وحينئذ تكون ارض عشر لا يوضع عليها خراج . والقسم الرابع ـ ما صولح عليه المشركون من ارضهم فهي الارض المختصة بوضع الخراج عليها » . ويميل ابو يوسف صاحب كتاب « الخراج » الى ما ذهب اليه الماوردي ... (المترجم) .

(*) يقول ابو يوسف ، بالنص ، ما يلي : « لا يضرب احد من اهل الذمة في استيدائهم الجزية ، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم في ابدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » . (كتاب الخراج ، ص٧٠) . (المترجم)

(3) N.A. Mednikov, Palestina, V. 4, pp. 1311—1314.

(**) كتب ابو يوسف ، قاضي هارون الرشيد ، الى هذا الخليفة الذي بلغت الدولة العباسية في عهده ذروة الرفعة والجبروت ، كتب يقول : ينبغي يا امير المؤمنين ، ايدك الله ، ان تتقدم في الرفق باهل ذمة نبيك وابن =

لقد أثارت سياسة تشديد الاستغلال سخطا واسعا لدى جماهير الفلاحين ، وجد تعبيره في كافة الانتفاضات المتعاظمة ، وخصوصا في عهد هارون الرشيد . ولذلك ، ففي عهد الخليفة المأمون ، أصدر في عام ٨٢٠ ، أمر (يسمى احيانا بـ « قانون المأمون ») ، نص على ان يكون الحد الاقصى للخراج ثلثي الحاصل .

والى جانب الزراعة ، كان ثمة امر اخر يتمتع باهمية اقتصادية كبيرة ، وهو تربية الدواجن . ان هذه الحيوانات كانت تربى ليس فقط باتجاه توفير الالبان واللحوم ، وانما كانت ايضا تجهز الزراعة ، والري احيانا ، بالحيوانات العاملة، وكذلك كانت تقدم المواد الاولية للانتاج الحرفي المتطور . وفي الارياف البدوية الواسعة ، المجاورة للمناطق الزراعية ، تطورت تربية الابل ، التي كانت توفر اكثر وسائل النقل شيوعا . فقد كان التبادل التجاري البري بين الدول ، والمناطق ، والمدن ، يتم بواسطة قوافل الابل ، التي كانت تحمل البضائع الى مسافات شاسعة .

الانتاج الحرفي ، المدن :

ان ثاني توزيع اجتماعي واسع للعمل ـ نعني فصل الحرف من الزراعة ـ تم لدى العرب منذ ظهور الاسلام ، اما في الاقطار التي فتحوها ـ ففي عصر العبودية القديم . وفي الاغلب كان اكثر الحرفيين من ذوي الاختصاصات المختلفة يسكنون المدن الكبيرة ، ولكن كانت هناك ايضا القرى التي كان سكانها يشتغلون ليس بزراعة الحبوب وانما بالحرف ، وكان اكثر هؤلاء يعملون اما في صناعة النسيج او في الصناعات الجلدية .

والى جانب تطور الزراعة بالري في اقطار الخلافة العباسية في النصف الثاني من القرن الثامن ، وفي القرن التاسع ، كان هناك ازدهار الانتاج الحرفي . وكانت اكثر الحرف شيوعا الغزل والحياكة . وكان الحرفيون ينتجون انسجة جيدة الصنع من الكتان ، والقطن ، والصوف ، والحرير . وكانت الانسجة الكتانية الرفيعة المستوى (مثل التيل) تنتج في الوجه البحري في مصر . وقد اشتهرت هذه بنوعيتها الرفيعة ، وكانت تحظى باقبال المشترين في خارج البلاد . وفي سوريا كانت قد تطورت صناعة الحرير ، وكان الحرفيون المحليون الحاذقون يصنعون من خام الحرير انسجة رائعة وديباجا فنيا . وفي كافة امصار الخلافة تقريبا كانت تصنع الاجواخ الرفيقة المتينة ، الملونة باتقان . وكان الصباغون الاختصاصيون الماهرون يتولون صباغة منتوجات النساجين باصباغ طبيعية ، كانوا يستخرجونها من عصير الاوراق ، ولحاء الشجر ، وجذور النباتات المختلفة .

وتطورت صناعة الجلود ، كذلك ، تطورا كبيرا ، وخصوصا منها الاساليب المتقنة لدباغتها . وكانت صناعة الملابس والاحذية مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتاج الانسجة والجلود . وبالدرجة الاولى كانت منتجات الحرفيين الشغوفين بعملهم ، والمجربين ، والذين بلغوا اتقانا فنيا في مصنوعاتهم ، ترد لتطمين الاحتياجات الرفيعة التفنن للطبقة السائدة التي يتزعمها الخليفة والاغنياء، والعلية من رجال الدين . وكانت الجماهير الكادحة التي كانت أذواقها تتحدد بمحدودية ما لديها من نقود ، مضطرة للاكتفاء بالمصنوعات الرخيصة والفظة غالبا ، من القطن ، والكتان والصوف . وبذات القدر كان الشعب البسيط لا يستطيع قطعا ان يحصل على صنوف الاحذية الباهظة الثمن ، المصنوعة باتقان من السختيان ، والملونة بانواع الوشاء والزخارف من الخيوط الحرير والذهب والفضة . وقد تعين على الاستهلاك الجماهيري الاكتفاء بالصنادل الجلدية الخشنة ، التي تقي باطن القدم من النار اللاهبة عند السير في الصخور والرمال التي سخنتها الشمس تسخينا كبيرا . وقد اقتصر اكثر سكان الارياف على الانسجة والاحذية التي كانوا يصنعونها بايديهم ، رغم أن البضائع الجلدية ومنتجات النسيج في أسواق المدن كانت تذهل الاجانب بوفرتها وتنوعها .

وبرواج كبير كانت تتمتع منتوجات السراجين وصانعي عدة الخيل ، الذين كانوا يضمون طقوم الخيل والابل ، ومختلف صنوف السروج اللازمة لامتطاء ظهور الخيل ، والابل ، والبغال والحمير . وكانت السروج المصممة للفرسان الاثرياء ، والوجهاء تحاك بالحرير الملون ، كما كانت تزخرف بالشارات المعدنية وحتى باللآلىء والاحجار الثمينة .

وقد بلغت مستوى رفيعا ، وحظيت باستهلاك واسع النطاق الحرف المختصة بصناعة المعادن ، وقبل كل شيء صناعة الاسلحة والآنية . وكانت منتجات صناع الاسلحة الحاذقين (السيوف والرماح والتروس والدروع والزرود والخوذ) ترد لتسليح قوات الخليفة . وعلى نحو خاص اشتهرت السيوف الدمشقية الفولاذية ، التي كان يصنعها اساتذة كانوا يحتفظون بسر الطريقة الخاصة في سقيها وبوتقتها .

وكانت أدوات المائدة في بيوت المواطنين ميسوري الحال تتالف ، في الجوهر ، من صنوف الآنية المعدنية (وخصوصا النحاسية) ، مثل الصحون والاقداح والاباريق والدوارق . كما ان المصنوعات الزجاجية السورية ، هي الاخرى، استخدمت استخداما واسعا في الحياة البيتية .

وكان سكان القرى وفقراء المدن يستعملون الآنية الطينية والخشبية . وفي مقابل ذلك ، كانت حتى الاشربة ، في قصور الخلفاء ، تقدم في انية ذهبية وفضية كانت غالبا ما تتميز بصنعة متقنة متميزة . ان الحرف الفنية (بمافي ذلك صناعة المجوهرات) قد تطورت تطورا كبيرا ، مطمئنة بذلك اذواق ونزوات وبذخ سلطة المالكين والاثرياء .

وقد ساعد في تطور الانتاج الحرفي كثير من العوامل الاقتصادية : وفرة المواد الاولية الواردة من المناطق الواسعة المهتمة بتربية الماشية والتي كانت تسكنها القبائل الرحل (مثل الجلود والصوف) ، والزراعة المتقنة للمزروعات التكنيكية ؛ وتعدين واستخراج الثروات الطبيعية . والى بغداد والمدن الكبيرة الاخرى ذات العدد الوافر من الصناع والحرفيين كانت السفن البحرية والنهرية ، وقوافل الابل تنقل سبائك الفضة من ايران وخصوصا من مناجم جبال غيندوكشا ، والذهب من المغرب وخصوصا من النوبة والسودان والنحاس من مشارف اصفهان ، والحديد من ايران واسيا الوسطى وصقلية . وفضلا عن ذلك ، فمن افريقيا كانت ترد الصنوف الثمينة من الخشب ، والعاج ، التي كان الصناع المتفننون يصنعون منها ايات الترف التي كانت تزين مساكن وحياة ممثلي الطبقة الحاكمة .

وبلغت تطورا كبيرا ، كذلك ، الحرف المرتبطة بصناعة المنتوجات الغذائية ، وخصوصا الحلويات ، المصنوعة من

عمك محمد صلى الله عليه وسلم ، والتفقد لهم حتى لا يظلموا ، ولا يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من اموالهم بحق يجب عليهم . فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه » . (كتاب : الخراج) ـ (المترجم)

الطحين والفواكه بالعسل وسكر القصب . وبرواج كبير كانت تحظى ادوات الزينة والتجميل المختلفة ، وصنوف المقاقير والادوية .

وفي الانتاج الحرفي كان الصناع الاحرار هم الكثرة الغالبة ، وان استمر استخدام عمل العبيد . وكان ارباب الحرف من العبيد يتعرضون للاستغلال الكثيف في الورشات العائدة للدولة، والاقطاعيين ، والتجار . وكان الصناع الاحرار يعملون اعتياديا في ورشاتهم وفي اسواق المدن ، مستخدمين قوة عمل ، وحذق ابنائهم واقاربهم الاخرين ، واحيانا العبيد العائدين لهم . وكانت ورشات الحرفيين في الاسواق تنتظم صفوفا خاصة ، كان يعمل في كل صف منها ارباب حرفة مستقلة من الحرف . وغالبا ماكانت الحرفة لا تتميز عن التجارة . فكان منتج البضاعة يبيعها للمستهلك راسا ، في ذات ورشته . ولا يعرف شيء عن تنظيم الحرفيين في الفترة موضوع الدراسة . اما منظمات الحرفيين ، المماثلين لارباب الورشات الاوربية الغربية ، فلم تظهر في ارجاء الخلافة الا في وقت متاخر جدا .

ولم تكن مدن الخلافة حربية ـ ادارية فحسب ، بل كانت ايضا مراكز اقتصادية وثقافية مهمة جدا في بعض اقطار الخلافة ومناطقها . ووفقا لتعريفات الجغرافيين العرب والمسلمين في القرون الوسطى كان يمكن ان تسمى مدينة النقطة المأهولة التي يوجد فيها مسجد ، وقصر للوالي ، وحمام ، ومدرسة ، وخان (فندق) ، ومستشفى ، وميدان (ساحة)(*) . وفي المدن الكبيرة كانت هذه البنايات ، والمعاهد والمؤسسات تعد بالعشرات وحتى بالمئات .

ويجدر ان ناخذ بحسباننا ، انه خلافا لاوربا الغربية في القرون الوسطى المتقدمة ، كانت الضيعة الاقطاعية في اقطار الخلافة لا تمتلك البتة سيطرة اقتصادية او سياسية على المدينة . والى ذلك ايضا ، كان الاقطاعيون في الخلافة العباسية لا يعيشون في ضياعهم وانما في المدن وقد كان للدور الاقتصادي لمدن الخلافة اهمية خاصة بنتيجة العلاقات النقدية المتطورة ، وفي ظروف النظام المتطور للحرف والتجارة .

وكانت العاصمة بغداد اكبر مدينة في الخلافة العباسية ، وكان مؤسسها هو الخليفة المنصور ، الذي منحها اسمها الرسمي (مدينة السلام) ، والتي صار شعبها يسميها « مدينة المنصور » . وقد اسس المنصور بغداد في عام ٧٦٢ ، على ضفة دجلة اليمنى ، الى الشمال من قناة « الصراة » الكبيرة التي كانت توحد هذا النهر بالفرات . وبامر المنصور دفع لبناء العاصمة الجديدة كادحو ليس بلاد ما بين النهرين والعراق فقط ، بل وكذلك كادحو سوريا وايران ، وقد بلغ عددهم وفقا للمعطيات العربية التقليدية مائة الف . وفي العام التالي بعد التاسيس ، في عام ٧٦٣ ، نقلت الى بغداد من الكوفة خزينة الدولة ، ونقلت كذلك مؤسسات الحكومة (الدواوين) . وقد انجز بناء « مدينة المنصور » في عام ٧٦٦ . كانت هذه هي « المدينة المدورة » ، المحاطة بسورين محصنين من الآجر . وفيما بعد ، اقيم السور الثالث ، الخارجي ، الذي حفر وراءه خندق مليء بالماء دائما .

وفي القسم المركزي من المدينة ، المحاط « بسور داخلي » ، كان قصر الخليفة الذي باتوا يسمونه « الباب الذهبي » او « القبة الخضراء » ، وذلك لانه كانت قد بنيت قبة كبيرة مكسوة بمصفحات الفيروز ، على قامة العرش في القصر . ومع القصر بني مسجد . وعلى مبعدة من القصر اقيمت البنايات الحكومية ، ولكنة حرس الخليفة ، وقصور المقربين من عائلة الخليفة ، واعيان الدولة . وكان ابعد المباني عن القصر مبنى السجن . وكانت الابواب الاربعة (باب البصرة ، وباب خراسان وباب الشام ، وباب الكوفة) تصل ما بين مركز المدينة وقسم اخر يقع ما بين السورين « الداخلي » و « الاساسي » . والى هنا ، بامر المنصور رحل واسكن في الاحياء سكان النقاط المختلفة المأهولة ، التي تواجدت على مسافة غير بعيدة من المدينة التي بنيت من جديد . وهنا اسكن ارباب الحرف والصناع والتجار، القادمون من مدن اخرى ، والذين اغراهم واجتذبهم وعد الخليفة بتقديم التسهيلات الخاصة في الرسوم والضرائب الى سكان العاصمة الجديدة .

وفيما يبدو ، فان الخليفة لم يبر بوعده لسكان العاصمة، وذلك لانهم منذ بدء سكناهم في بغداد اظهروا غضبهم وسخطهم . ودون الركون التام الى متانة « السور الداخلي » ، وخشية من الارتحال الى ماوراءه تحاشيا لمواجهة احتجاج السكان العارم ، فان المنصور امر ، بعد بضع سنوات من اسكان العاصمة ، باخراج الحرفيين والتجار الصغار الساخطين وراء اسوار المدينة ، وباسكانهم ضاحية الكرخ . وعند ذلك امر الخليفة بان يكون سوق القصابين المهرجين بعيدا عن اسوار المدينة . وقد برر امره بذلك الاعتبار الذي مفاده ان القصابين ميالون الى الشغب ، فيما يملكون في ايديهم الحديد القاطع .

ان بغداد ، التي اكتسبت اهمية استثنائية في اقتصاد الدولة العباسية الواسعة ، قد تعاظمت بسرعة ، وقد تحولت في القرن التاسع الى احد المراكز العالمية الكبيرة للانتاج الحرفي والتجارة. وكانت المدينة المتسعة باطراد تحتل رقعة واسعة على ضفة دجلة اليسرى ايضا ، حيث أسكن الحرفيون الكثيرون ، وحيث اقيمت الاسواق الضخمة المفعمة بالحيوية . أما جانب الضفة اليمنى من المدينة فكان يتصل راسا بالضفة اليسرى بواسطة جسر من الصنادل . وقد اكتسبت بغداد ، كذلك ، أهمية قيادية كمركز ثقافي للخلافة . فقد اصبحت مركز اجتذاب ، وملتقى افضل قوى المثقفين الناطقين بالعربية ، وخصوصا منذ ايام حكم الخليفة المامون .

وفي ذات الوقت كان كثير من الفقراء اللاهاوى لهم يعيش عيشة غاية في البؤس والادقاع . وعلى وجه الخصوص ، كان المشردون والمعدمون يتكدسون في الاسواق الكبيرة ، وفي ازوقة المساجد الرئيسية ، وفي منطقة الميناء النهري التي ربما كانت أشد الاماكن حيوية في العاصمة . وكان هؤلاء المعوزون المدقعون، وحثالات المجتمع في بغداد يقتاتون بالاعمال التافهة العرضية ، وبالتسول والاستجداء الملحاح ، والسرقات ، واحيانا باقتراف الجرائم ، وفي مثل هذا الوسط انتشرت أسوأ الوان الدعارة .

وكانت ثمة مدينة ناشطة اخرى ، كانت الحياة فيها تجيش موارة ، وهي مدينة البصرة ، التي كانت تعتبر الباب التجاري الجنوبي للدولة العباسية .

التجارة :

ان الموقع الجغرافي الوسطي للدولة العباسية على مفرق الطرق التجارية العالمية ، التي كانت ترد فيها بضائع اقطار الشرق الاقصى والهند الى اوربا ، قد حدد الاهمية البارزة لهذه الدولة في تجارة الترانزيت العالمية . ولكن ما كان يتمتع بالاهمية الاكبر بالنسبة لاقتصاد الخلافة ، هو العلاقات

(*) الكلمات التي وضعت في انواس ، وردت هكذا في الاصل ، ويقصد المؤلف بها التسميات الجديدة المعاصرة للمؤسسات القديمة . (المترجم)

التجارية بين الاقطار المختلفة التي كانت تؤلف كيان هذه الدولة الواسعة ، الواقعة بين المحيطين الكبيرين : الهندي والاطلسي ، والتي كانت تغتسل باربعة بحار ـ المتوسط ، والاسود ، والاحمر ، والبحر في خليج البصرة . وكانت قاعدة التبادل التجاري النشيط الواسعة هي الانتاج الحرفي المتطور والاستغلال المتقن للثروات الطبيعية .

لقد كانت المدن الكبيرة نقاطا هامة للتجارة البحرية وتجارة القوافل ، ففيها كانت الاسواق الحاشدة تجتذب المشترين والتجارة على حد سواء ، اما المخازن فكانت مليئة بالبضائع المحلية وبضائع ما وراء البحار ايضا . وكانت انسجة الكتان المصرية يمكن اقتناؤها في اسواق المدن ليس فقط في افريقيا ، وانما في اسيا ، وحتى في اوربا . وكانت مصنوعات الحرير والزجاج تحظى بالرواج الكبير في كل مكان ، وكذلك القول ازاء الاسلحة والآنية المعدنية . ومن غربي ايران كانت ترد صنوف السجاد والبسط المطرزة . ومن عربستان كان يؤتى بالسكر . وفي هذه المنطقة بالذات وفي منطقة الكوفة كان القطن يزرع . وكان النحاس يستخرج في ايران ، واسيا الوسطى ، وارمينيا ، وافريقيا (تونس) ، والاندلس . وبالقصدير والرصاص كان غنيا باطن الأرض في شمالي وغربي ايران . وفي هذا البلد ، كان الزئبق يستخرج ، في منطقة اصطخر . وكان جنوب غربي ايران وشمال العراق (ما بين النهرين) مشهورا بالنفط والاسفلت . ومن جنوبي ايران كانت ترد منتوجات مرتفعة الثمن مثل النيلة ، والافيون .

وكانت القوافل التجارية من شمال افريقيا ومصر تتغلغل في الاراضي الافريقية فتبلغ منطقة بحيرة (تشاد) ، وغالبا ما كانت تبلغ خط الاستواء . وكان رجال القوافل العرب قد تضلعوا في ارتياد الطرق المطروقة ، والسبل الممتدة عبر الغابات ، والبطاح ، والبوادي في المناطق الجنوبية من الصحراء . وكانت تجتذبهم وتغريهم امكانية الحصول على الارباح الوافرة والسهلة في التجارة مع سكان افريقيا الغربية ، الذين كانوا يبادلونهم الملح لقاء الذهب ، وكانوا يشترون ، على نحو مربح ، الطوابير الكبيرة من العبيد . وفي تيمبوكتو وكاو(*) كانوا ، الى جانب الذهب ، يحصلون على العاج . ومن افريقيا « السوداء » كانوا يجلبون ، كذلك ، ريش النعام ، والفراء ، وجلود الحيوانات المفترسة التي كانت تجوس ، بمقادير كبيرة ، الغابات الصحراء والبراري المدارية .

وقد تطورت تطورا كبيرا ، كذلك ، التجارة البحرية في المحيط الهندي وفي البحر الابيض المتوسط . وفي المحيط الهندي كان ربابنة السفن ينجزون ، بثقة ، السفرات البعيدة. ومنذ القرن الخامس كانت السفن تصل الحبرة والآبلة آتية من البحر الاحمر ، والهند ، والصين . وفي عهد الخلافة العباسية كانت البصرة قد اكتسبت الاهمية التي تنبغي لواحد من الموانيء الكبيرة والهامة في التجارة البحرية العالمية . ولم يكن في استطاعة ميناء اخر منافستها في ذلك اللهم سوى ميناء (صحار) في (عثمان) ، وفيما بعد استحالت اهمية هذا الميناء الى ميناء مسقط . واصبح ميناء بالغ الحيوية ، كذلك ، ميناء (سيراف) في كرمان ، على الضفة الايرانية لخليج البصرة .

وحتى القرن الثامن كانت المبادرة في العلاقات التجارية في المحيط الهندي تعود الى الصينيين ، الذين اظهروا من المراس والهمة اكثر مما اظهره التجار الفرس والعرب في ذلك الوقت . وفي ميناء سيراف كانت ترسو السفن التجارية الصينية ، التي كان طاقم بعضها يتالف من ٤٠٠ ـ ٥٠٠ شخصا. وكانت هذه السفن الكبيرة مسلحة متاهبة للنزال ، في حالة مواجهة القراصنة . وعلى ظهورها كانت نافثات اللهب ، القادرة على نفث النفط الملتهب .

وفي بداية القرن الثامن كان البحارة البصريون العرب قد فاقوا الصينيين والهنود وتخطوهم في فن قيادة السفن وفي بناء السفن كذلك . وفي عهد الحجاج صار البصريون ينطلقون الى عرض البحر في سفنهم الخاصة ، التي كانوا يستخدمون في بنائها المسامير المعدنية (كان صانعو السفن الاولى لا يعرفون سوى البرشمة الخشبية والحبال) .

لقد درس البصريون جيدا كافة الجزر في خليج البصرة ، وتضلعوا بادارة الموانيء المناسبة فيها . وبانطلاقهم الى المحيط، فيما بعد ، كانوا قد اسسوا مصانع تجارية في جزر سوقطرة وزنجبار ، وعلى سواحل افريقيا الشرقية . ومن افريقيا ، كانوا ياتون ، على ظهور السفن البصرية ، بالعبيد السود ، والعاج ، والخشب الملون الثمين ، والتبر ، والاحجار الثمينة. وصار البصريون ، بعد اقامتهم علاقات متينة مع تجار سيلان(*)، ينقلون من موانيء هذه الجزيرة العاج والاحجار الثمينة . وعلى سواحل الهند الغربية (التي تدعى مالابار) ، كان يوجد عدد من المصانع ، التي كان التجار المسلمون من رعايا الدولة العباسية ، يعدون فيها بالالاف . لقد اقاموا هناك المساجد ، كما كانت دعاواهم الشرعية ينظرها قضاة مسلمون . ومن الهند الى دولة الخلافة في بغداد كانت تنقل التوابل ، ومصنوعات النسيج ، التي كان في عدادها ارق الانسجة الحريرية . وكانت مصانع التجار العباسيين منتشرة على ساحل كوروماندل ، اي على الساحل الجنوبي ـ الشرقي للهند . والى هناك من سيراف ، كانوا سنويا ينقلون بضع الاف من رؤوس الخيل .

ان المغامرات الاسطورية للسندباد البحري ، التي دخلت في مجموعة « الف ليلة وليلة » ، انما كانت تعكس النشاط التجاري للتجار العباسيين في البحار الجنوبية . وكما هو مفترض ، فان السندباد بلغ مدينة كال في ملقا . ومن شبه الجزيرة هذه كانوا ينقلون الذهب والقصدير . وكان التجار المسلمون في سومطرة بخاصة يحصلون على بضائع كثيرة ثمينة جدا ، كما كانوا يحملون منها الذهب ، والتوابل ، والمواد العطرية ، والنباتات الطبية ، والكافور . وفي بورنيو الشمالية كانوا يحصلون على اللؤلؤ ، اما في جزر الفيليبين ـ فعلى الذهب والعاج . وعلى الارجح ، فان هذه الجزر بالذات كانت ذلك البلد الشرقي الاسطوري البعيد (واق واق) ، الذي كانوا يماثلونه ، خطا ، مع اليابان وطبقا لمقترح اخر ، فان هذا البلد انما كان جزيرة في الصين . وقيل ، انه في الجزيرة كانت تنمو شجرة خفية ، كانت ثمارها نساء حية(٤) .

ومنذ أواسط القرن الثامن كان التجار العرب والفرس قد عرفوا الطريق الى الصين ، التي كانوا في البداية قد عوموا اليها على ظهور الجونكات(**) الصينية ، العائدة من البصرة الى

(*) تقع هاتان المدينتان الان في جمهورية (مالي) ـ (المترجم)

(*) تسمى هذه الجزيرة ، الان ، « سريلانكا » ، الا ان اسمها التاريخي « سيلان » هو الغالب عليها ـ (المترجم)

(4) I.U. Krachkovski. Arabskaia Geographichskaia Literatura, — izb. soch. (Selec. Works), Vol. IV, p. 281.

(**) الجونكات هي السفن الشراعية الخفيفة ، التي كانت تصنع في الصين ، وكانت تمتاز بمؤخرة مرتفعة ومقدمة منفرجة ـ (المترجم)

وطنها . وسرعان ما اصبح المسلمون الاجانب يؤلفون سكان عديد من الاحياء في كانتون (كان ـ فو) ، حيث ارتفعت المنائر في الجوامع ، وحيث كان القضاة المسلمون يقضون بين المسلمين بموجب أحكام الشريعة . وفي عام ٧٥٨ ، كان السكان الاصليون في كانتون قد قاموا بانتفاضة ضد السلطات الامبراطورية . ولاخمادها ، بعثت حكومة بوغديخان فصائل المرتزقة الفرس ، المتواجدين في خدمتها . وانذاك ، فان رعايا الخلافة العباسية الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة الكبيرة ، ائتمروا مع فصائل القمع ، وأعملوا السلب والنهب في المدينة ، مشعلين الحرائق ، وحملوا ما نهبوه على ظهور سفنهم ، وفروا فيها الى موانئهم في بلدانهم . ولكن بعد حقبة قصيرة من الزمن ، عاد التجار العرب فاستوطنوا ميناء كان ـ فو (كانتون) من جديد ، وتوغلوا ببضائعهم برخصة من الحكومة الصينية ، الى المناطق الداخلية في الصين . ومن هذه البلاد الى دولة الخلافة ، كان التجار المسلمون يحملون الخزف الصيني الشهير ، والانسجة المتقنة الصنع والزاهية الالوان ، والحرير .

ان وجود العلاقات التجارية البحرية بين دولة الخلافة العباسية والصين لم يؤد الى ايقاف حركة قوافل الابل في « الطريق الحريري » الشمالي ، المفتوح منذ الزمن القديم . وفي هذا الطريق ، كانت البضائع الصينية تمر عبر سمرقند وبخارى ، والري ، وهمدان الى بغداد . ومن هناك ، من عاصمة الخلافة ، كان طريق واحد يمتد ، متشعبا في احدى شعبتيه الى الغرب الى طرابزون ، حيث كانت البضائع الشرقية تنقل على السفن التجارية البيزنطية ، والى الموانيء السورية في البحر الابيض المتوسط . وكان ثمة شعبة اخرى تقود الى الجنوب الغربي ، الى شبه جزيرة العرب وافريقيا ، عبر الكوفة ، والمدينة ، ومكة ، وموانيء البحر الاحمر ، او عبر برزخ السويس . وفي « الطريق الحريري » من الصين الى بلدان الخلافة كانوا ينقلون الخزف والانسجة ، بما فيها الحرير .

وفي المدونات التاريخية لسلالة تاي المالكة (٦١٨ ـ ٩٠٧) بقيت أسماء الخلفاء العباسيين ، وقد حرفت تحريفا قويا في الترجمة الصينية . غير ان مسالة تبادل السفارات الرسمية بين الخلافة والبوغديخانيين(*) ظلت حتى الان دون اضاءة كافية. وفي المصادر المكتوبة باللغة العربية لم تبق معلومات معتمدة حول استقبال سفارة ما صينية في بغداد او في سامراء . ومن الممكن ان بعض التجار الواصلين الى الصين من دولة الخلافة العباسية قد ادعوا انهم سفراء رسميون للخليفة لا لشيء الا ليحصلوا على التسهيلات الكمركية ، وليمنعوا نهب بضائعهم من قبل السلطات المحلية .

اما العلاقات التجارية بين دولة الخلافة العباسية والهند ، وبينها وبين اندونسيا والصين فقد تركت أثرا هاما في الادب المكتوب بالعربية . وفي القرن التاسع ، حين كانت الطرق البحرية الى هذه الاقطار البعيدة غير المكتشفة حتى ذلك الوقت ، قد استوعبت من قبل التجار العرب والفرس ، فان كثيرا من القصص والحكايات قد الفت ، بكميات وافرة ، وهي الحكايات التي يدعوها الاكاديمي كراجكوفسكي « أساطير جغرافية » . ان هذه القصص التي تضم معلومات صحيحة عن الاقطار والشعوب الاجنبية اختلطت بمبتكرات الخيال الطليق على هواه ، قد وجدت كثيرا من الراغبين في سماعها وترديدها في البصرة وسيراف وبغداد(٥) .

والى اواسط القرن التاسع تعود قصص « التاجر سليمان » التي تلقت معالجتها وصياغتها الادبية في القرن التالي . لقد قام هذا الباحث المثابر عن الارباح ، بعدة رحلات ذات غايات تجارية الى الهند ، ومن هناك عبر مضيق ملقا الى الصين . « انه يقدم وصفا حيا للسواحل ، والجزر ، والموانيء والمدن المختلفة مع سكانها ، ومنتوجاتها ، وبضائعها التجارية »(٦) . وبعد ٢٠ عاما ، كانت قصص سليمان قد أتمها ابن وهب ، وهو تاجر ـ رحالة اخر ، مكث ردحا من الزمن في سينانغو . وبعد وقت قصير من مكوثه في هذه المدينة ، التي كانت عاصمة الصين في عهد سلالة تان ، فان جالية التجار العرب في كانتون قد أبيدت في عام ٨٧٨ في غمار الحرب الفلاحية الكبيرة . وفيما بعد ، لم يتوغل التجار العباسيون في الشرق أبعد من ملقا . ولم تستانف علاقات الشرق العربي بالصين الا في القرن الثالث عشر . وفي مقابل ذلك ، كان هؤلاء التجار قد طوروا العلاقات التجارية مع بلاد (كخمر) ـ كامبوديا ـ التي كانوا يحملون الفضة منها .

لقد كان السفر بحرا الى الصين من النظامية بحيث انه حتى بعض سكان اسيا الوسطى كانوا يفضلون الاتجاه الى هذا البلد البعيد بالطريق الجنوبي البحري . وهكذا ، فان احد تجار سمرقند توجه الى هناك عبر العراق ، مغادرا البصرة بحمولة من البضائع الثمينة ، وحالما وصل ملقا ، فانه اقفل السفر صعدا الى الصين ، على ظهر سفينة صينية(٧) .

اما تجارة دولة الخلافة العباسية مع بيزنطة فقد أعاقتها لحد كبير ، الحروب العربية ـ البيزنطية الكثيرة . وعلى اية حال ، فان التبادل التجاري بين هاتين الدولتين الكبيرتين لم ينقطع ، فقد كانت « سفن الروم » تزور دائما ميناء طرابزون ، الذي كان هو البوابة التجارية الشمالية للخلافة . لقد كانت بيزنطة بحاجة الى البضائع الشرقية ، التي لم تكن تستطيع الحصول عليها الا عن طريق التجار المسلمين .

لقد كان الاسطول التجاري العربي هو السيد في البحر الابيض المتوسط . وقد لعبت مصر ، في التجارة في هذا البحر ، دورا بالغ الاهمية ، مثلما لعب العراق في التجارة في المحيط الهندي . لقد كانت لوادي النيل علاقاته التجارية مع المغرب ، والاندلس ، وأوربا الغربية . وعلى اية حال ، فاذا كان التبادل التجاري للاندلس والمغرب مع مصر ـ وعبرها مع المنطقة الاسيوية لدولة الخلافة العباسية ـ ، منتظما ، فان التبادل التجاري مع أوربا الغربية كان له طابع عرضي على الارجح . وثمة فكرة صاغها المؤرخ البلجيكي هنري بيرين ، مفادها ان الغزوات العربية وتشكيل دولة الخلافة قد عرقل العلاقات الاقتصادية ، القائمة في العصر القديم بين الشرق واوربا الغربية الامر الذي أدى الى عزل المنطقتين الواسعتين ، الواحدة عن الاخرى(٨) . ان هذه « النظرية » المقنعة للغاية ، والتي تقدم بها أ . بيرين . قد جابهت الشكوك من جانب مؤرخي القرون الوسطى الاوربيين . ومع ذلك ، فان الاستنتاجات الاساسية لهذا العالم ، المستندة الى مادة وثائقية كبيرة ممتعة ، تستحق الاهتمام الجدي . وعلى نحو خاص ، فانه مما لا يستدعي شكا

(*) المقصود بهم الاسر الملكية الحاكمة في الصين ، والمعاصرة للخلفاء العباسيين (المترجم)

(5) Ibid., p. 141.
(6) Ibid.
(7) Ibid., p. 144.
(8) H. Pirenne, Mahomet et Charlemagne, 2 ed., Paris, 1937.

ان التجارة البحرية للسوريين مع مملكة آل ميروفينغ الافرنجية في القرنين الخامس ـ السادس كانت منظمة ، ناشطة جدا ، ولكن بعد اقامة الدولة العربية في سوريا فانها انقطعت تماما تقريبا . وهي كذلك لم تتطور في عهد عائلة كارولينغ المالكة التي حكمت عام ٧٥١ ، أي في ذات الوقت تقريبا الذي جاء العباسيون فيه الى السلطة .

وباتصال مباشر مع هذه العلاقات التجارية « الاسلامية ـ الفرنجية » ينهض سؤال حول العلاقات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية ودولة الافرنج . وبين المؤرخين البرجوازيين الاوربيين الغربيين ، فان المصطلح عليه (استنادا الى المأثورات المتحدرة من القرون الوسطى الكاثوليكية) ان العلاقات الدبلوماسية « الاسلامية ـ الفرنجية » كانت قد أقيمت في عهد الملك (بيبين القصير) ، ٧٥١ ـ ٧٦٨ ، معاصر الخليفة المنصور، وتلقت تطورها الكبير أيام كارل الكبير (٧٦٨ ـ ٨١٤) ، معاصر هارون الرشيد . والارجح من كل هذا ، ان مثل هذا التمثيل قد أقيم في فترة الحروب الصليبية ، وكان له لونه الاكليركي المحدد تماما : الذي تمثل فيه كارل الكبير في صورة الحاكم المسيحي ، الذي اعترف خليفة الاسلام بحقوقه (كحام) للاماكن المقدسة في فلسطين .

وقد اثبت الاكاديمي ف . ف بارتولد في دراسته « كارل الكبير وهارون الرشيد »(٩) بطلان هذا التمثيل المتعصب ويلفت بارتولد انظار قرائه ، في هذه الدراسة ، الى الصمت التام للكتاب العرب والمسلمين تجاه أيما علاقات كانت قد نشأت بين الخليفة العباسي والامبراطور كارل الكبير . وفضلا عن ذلك ، ففي دولة الخلافة لم يعرفوا اي شيء عن هذا الامبراطور ، وحتى اسمه لم يكن معلوما . وفي ذات الوقت ، فان (آ نيهارد) ومدوني تواريخ الافرنج الاخرين لا يتحدثون بشيء عن الخلافة ، ولا يعرفون اسماء الخلفاء . وكل ما في الامر ، ان بعض المسيحيين من غرب أوربا قد بلغوا فلسطين كحجاج ، وزاروا أورشليم (القدس) و « الاماكن المقدسة » الاخرى في هذه البلاد وعلى سبيل الاهتمام بالحجاج والعناية بهم ، كان كارل الكبير قد أقام علاقات ودية مع بطريرك القدس ، وقد تحققت هذه العلاقات المتبادلة عن طريق الرهبان الشرقيين والغربيين ، الذين كانوا ، من وقت لاخر ، يزورون كلا من دولة كارل ، وفلسطين .

والى جانب الحج الى « الارض المقدسة » ، فان عاملا اخر كان يربط أوربا الغربية بالشرق وهو التجارة ، التي كانت كلية في أيدي التجار اليهود ، الذين كان يعرف بعملهم الجغرافيون العرب والمسلمون . لقد كان تجار أوربا الغربية هؤلاء ياخذون معهم الى اقطار الشرق العبيد والجواري والوان الفراء والسيوف . وعادة كانوا ينقلون بضائعهم في البحر الابيض المتوسط ، عبر مصر ، الى البحر الاحمر ، وابعد من ذلك : الى الهند والصين . ومن الشرق الى أوربا كانوا يحملون بضائع ثمينة للغاية ، بما في ذلك المسك ، ونبات الند الطبي ، والتوابل والكافور . وبالدرجة الاولى ، كان مستهلكو هذه البضائع النادرة هم أقرباء كارل ورجال بلاطه . ولذلك ، ففي بلاط كارل، كان هؤلاء التجار يتمتعون بالتكريم والثقة . وقد عهد امبراطور الفرنجة اليهم بمهمة دبلوماسية ـ استطلاعية (تجسسية) ومثل هذه المهمة ، مثلا ، كانت قد عهد بها الى التاجر اسحاق ، الذي توجه ، عند نهاية القرن الثامن ، الى الشرق ، وامضى هناك بضع سنين . وقد عاد اسحاق عبر تونس وصقلية الى ايطاليا ، وحمل معه فيلا ، وهدايا اخرى زعم ان الخليفة هارون الرشيد بعث بها ، وادعى انه رسول الخليفة . وفي عيون الاوربيين ، فان هذا السفير الدعي قد غطى على أخباره تماما الفيل الذي جلبه معه ، والذي كان يدعى « ابو العباس » . ان هذا الحيوان الغريب ، الذي لم ير من قبل في أوربا ، كان يجمع الحشود الضخمة في كل مكان . وفي اجتياز ايطاليا عانى الفيل كثيرا من المتاعب والصعوبات في عبور الالب ، وفي عام ٨٠٢)تكشف في (آخن) ، الى حيث كان صاحبه قد وصل به الى بلاط كارل الكبير . وقد خلد الفيل في سجلات الفرنجة . وفي عام ٨١٠ نفق الفيل فجاة لسبب غير معروف(١٠) .

اما الهدايا ، التي زعم ان الخليفة بعث بها الى الامبراطور (الساعة المائية بتماثيلها ، وخيمة الحرير ، وسوى ذلك) ، فانه لم يمكن الاحتفاظ بها ، وذلك لانها في الواقع لم تكن موجودة . وقد كتب الباحث الكبير ، الاختصاصي في تاريخ الفن ، يا . أي . سميرنوف يقول ، انه لا يمكن العثور على ايما دلائل مادية للعلاقات بين كارل الكبير وهارون الرشيد .

وضد استنتاجات ف . ف . بارتولد وقف الاختصاصي الشهير بالدراسات البيزنطية ا . ا . فاسيليف ، في ما كتبه في « السجل البيزنطي »(١١) . والحق ان هذا العالم ، في معرض اتهامه بارتولد بالمغالاة في « نزعة الاغراق في النقد » ، انما كان يدافع عن النظرات القديمة ، التقليدية ، المشبعة باتجاه اخضاع العلم للدين . وفي الرد عليه كتب بارتولد مقالته الثانية « حول مسالة العلاقات بين المسلمين والفرنجة »(١٢) . وبعد هذه المناقشة على صفحات المجلات العلمية ، فان مقولة بارتولد عن أسطورية العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين وآل كارولينغ قد اثبتت تماما .

اما التجارة مع أوربا الشرقية فلم تكن بعد قد تطورت ولكن كانت معروفة الطرق الممتدة عبر بحر الخزر وحوض الفولغا الادنى الى خانان الخزر ، وقد أقيمت العلاقات مع مملكة كييف الروسية . وفي (ايتيل) الخزري كان التجار يحصلون على ارفع أنواع الفراء ، وفي ذات الوقت كان الفرو السيبيري يباع في التبت . وكان التجار المسلمون يتلقون من الروس ومن سلافيي مملكة كييف ، (الكهرمان) ، الذي كانوا يحملونه من سواحل بحر البلطيق في الطريق التجاري « من الورنك الى اليونان » ومن أوربا الشرقية الى دولة الخلافة كان يؤتى بالعبيد البيض ، والنحاس والشمع ، وكان الاخير يستعمل لصنع الشموع .

---

(9) V.V. Bartold. Karl Viliki & Harun-ar-Rashid — "Khristiancki Vostok", V. 1, rip. 1, 1912, pp. 69—94.

(10) Ibid., pp. 76—77.

(11) A.A. Vasiliev. Karl Viliki & Harun-ar-Rashid, — "Vizanticki Vremmenik", Vol. XX, Vip. 1, Otd. 1, 1913, pp. 63—116.

(12) V.V. Bartold, K Voprosu O Franco—Musulmanckikh Otnoshiniakh, "Khristianski Vostok", Vol. III, Vip. 3, S pb, 1914, pp. 263—296.